ابولون والشعر الحى

بقلم الدكتور على العنانى

— ٢ —

١ — لقد تحدثنا اليك أيها القارء الأديب عن الشعر وضروبه ، والشعراء وأقسامهم وعلاقة الشعر الحى وشعرائه بآله الشعر أبولون مع الاشارة الى حقيقة هذا الاله اليونانى الرومانى ، والى مكانته بين آلهة الأولمب . ولقد وعدناك فى آخر هذه الالمامة العجلى السابقة بالقيام برحلة روحية الى رحاب هذا الآله نستطلع بها كنهه ونقف بمساعدتها على دوائر عمله . ووفاء بالعِدة أحدّثك عن ذلك الآن .

٢ — كنت بمدينة الاسكندرية ثغر مصر الأكبر يوم أن وعدتك بهذه الرحلة الروحية وقد حاولت وأنا بهذه المدينة اطلاق عنان الفكر موجهاً اياه الى عالم الاساطير القديم فما كان ينطلق الا الى عظمة الاسكندرية التالدة والطريفة وتاريخ تأسيسها ومؤسسها العظيم ، وآثار الفلاسفة الهيلنيين فيها متدرجاً فى ذلك من بدء نشأتها الى عصر المرأة معجباً بما فيه من رقى عقلى وازدهار علمى . ثم الى الفترة التى تلت هذا العصر آسفاً لما جاءت به من فتور وركود الى اول عهد النهضة الحديثة تقريباً . ولأمر ما اضطررت الى العودة الى مدينة هليوس (هليوپوليس) حيث اقطن وأقيم .

وبينا أنا ذات يوم قد استيقظت من نومى مبكراً ، كعادتى ، واذا بأورورا (الفجر) ذات الأصابع العنمية قد أرسلت نوراً معلناً إشراق هليوس (الشمس) فى مركبته ذات الجياد الأربعة ، فتنبهت اليه وانتظرت إشراقه .

ولما بدا فى حافة الافق هللت اليه ، وقدست له ، وبجدته بعظيم آثاره وتقدمت اليه بأدعية ورجاء فاستجاب الدعاء وقبل الرجاء قائلا : ما حاجتك ؟ قل وأوجز فقد دعوت سميعاً ورجوت كريماً ! فقلت :

يا آله الشمس ورب النور ، ومصدر الحياة ، وقوة الخصب والانتاج ، انا نراك كل يوم تشرق علينا بعظمتك وجلالك فتضيء الأرض والسماء ، وترسل الينا منك حرارة الحياة ، وقوة الخصب ، واشعة الخير والسعادة . ولكننا نسمع أيضاً بالله لا نراه يقال إله النور ويعرف عند اليونان باسم (أبولون) ويدعوه الرومان باسم (أبولو) أو (سول) . فما الفرق بينكما ؟ وأين هو الآن ؟ وما دوائر اختصاصه ؟

على الفور أجاب هليوس وهو مستمر فى قيادة مركبته صاعدة فى قبة السماء : على ضوئى اقرأ هذه الصحيفة التاريخية الاثرية تجد فيها كل ما تريد .

قال ذلك هليوس واذا بى قد وجدت بين يدى رَقّاً ملفوفاً ، عليه كتابة اغريقية قديمة مترجمة الى كل اللغات الحية ما عدا العربية . ولما قرأتها وجدت أنها ترجمة حياة الاله أبولون . واليك ملخصها بقدر ما يسمح المقام :

٣ — يعرف أبولون باسماء كثيرة ، والأعظم منها فويبوس — أبولون (Phoibos - Apollon) ، ومعنى فويبوس الشمس والفصاحة وأبولون الفراش ومرآة العين (آلة يستعملها الطبيب لكشف العين) أو آله . فيكون معنى فويبوس أبولون — آله الشمس واله الفصاحة أى الذاكرة و لتفكير والخطابة والشعر ، أو بعبارة أعم اله العلوم والفنون والصنائع .

ومن اسمائه الرئيسية دليوس (Delios) نسبة الى جزيرة دلوس التى ولد بها ، وكينتيوس (Kynthios) نسبة الى جبل كينتوس الموجود فى هذه الجزيرة ، وليتنويدس نسبة الى أمه ليتو (Leto) ، ونوميوس (Nomios) ومعناه قانون أى القانونى فى الغناء والالعاب الرياضية وبيآن (Paean) أى طبيب ، وبيتيوس (Pythios) نسبة الى بيتيو أى دلفى مهبط وحيه

٤ — ينسب فويبوس — أبولون الى عظيم الاسرة الالهية زُويس أو جوبتر فهو والده وأمه ليتو أو لاتونا . وهو وأرتيمس أو أديانا توأمان .

تقصّ الاساطير الاغريقية القديمة أن فويبوس — أپولون ولد فى جزيرة ديلوس احدى جزر أرخبيل سيكلاد فى بحر ايجه . ولما حملت ليتو فى أپولون من جوبتر تعقبتها زوجه هيرا ، فهامت ليتو على وجهها فى البلاد مختبئة من هيرا المتعقبة لها . وأخيراً وجدت هذه الهائمة لها ملجأ منيعاً فى جزيرة ديلوس ، أختبأت فيه . ويقول قُصَّاص الاساطير اليونانية إن مناعة هذه الجزيرة أمام هيرا كانت فى طبيعتها الخاصة لانها كانت صخرية جرداء مجهولة ولأنها كلما اهتدت اليها هيرا انتقلت من مكانها فى الحال الى مكان آخر فى البحر حتى لاتعثر زوج جوبتر المغيظة المحنقة على المعتصمة بهذه الجزيرة الغريبة فى طبيعتها .

ولما ولد فويبوس — أپولون بهذه الجزيرة استقرت وامتلأت بالشعاع الذهبى وأخصبت وأزهرت ، ورفرف فوقها الطير . ولهذا كان يحتفل بعيد ميلاد أپولون بهذه الجزيرة .

٥ — لم يفرق شعراء الاغريق المتأخرين بين أپولون وهليوس فكلاهما الشمس، وكلاهما رمز النور والحرارة والخصب . وفى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد عرف الرومان أپولون ، وكان آله الشمس عندهم يسمى سول (Sol) فدعوا ذاك الاله الاغريقى باسم أپولو (بحذف الثون فى آخر الكلمة) ولم يفرق الرومان كذلك بين أپولو وسول ورأوا فيه مارآه شعراء الاساطير الاغريقية المتأخرين .

والواقع أن هليوس هو قرص الشمس ونورها المادى ، وأپولون هو الضياء المحض والنور المعنوى يدل على ذلك اسمه فويبوس — أپولون اذ أن فويبوس معناه الفصاحة أو الشمس بمعنى الضوء المحض ، والنور العقلى حتى يتناسب هذا المعنى مع معنى الفصاحة أى الخيال والشعر ويؤيد هذا التفسير لمعنى فويبوس — أپولون أن أمه تسمى ليتو أى الخبء ، أو الاختفاء ، أى ظلام الليل، أو الظلام من حيث هو . وأصل الوجود العام الظلام المعنوى وعنه نشأت قوة النور المحضه نشأة فويبوس - أپولون عن أمه ليتو أى الظلام .

معروف أن كوكب الشمس يرسل أشعة مادية ، وينبعث عنه نور طبيعى . وبهذا النور الطبيعى ، وفيه ، تظهر كل استنارة عقلية مثل : المعارف والعلوم والفنون ،

والحق والحقيقة ، والفضائل الاجتماعية . ومعنى هـذا أن النور ينقسم الى قسمين احدهما معنوى فى العقل والثانى مادى فى العين .

بهذا نفهم الفرق أيضاً بين فويبوس — أبولون وبين هليوس . فالأول رمز النور المعنوى والهـه ، والثانى عنوان النور المادى وكوكبه الذى يصعد فى السماء ويهبط ثانيـة الى الارض ، فتتكون به الفصول وتنشأ الحياة المادية فى الانسان والحيوان والنبات وبه يكون الخصب اذا اعتدل ، والجدب اذا اشتد .

وقد نشأ هليوس فى عهد الآلهة التيتانيين بهذا المعنى المادى ، والفكر اليونانى القديم لم يسبح بعد فى عالم المعنى والخيال . ولما انتصر زويس على التيتان وجلس على عرش الالهـية الاسمى على قمة الأولمب أرسـل من لدنه نوراً معنوياً الى العقل الانسانى فسما الانسان بفكره الى عالم المعنى وانكشفت له قوة الخيال فأدرك ما فى الشمس وضوئها من القوى المعنوية التى رمز اليها بفويبوس — أبولون لجل زديس وليتو ، فهو النور المعنوى والهـه الذى يبدد كل ظلام . وهو ناموس النواميس الأولى وعلام الغيب والمطلع على الماضي والحاضر والمستقبل . ومنزل الوحى والمنبي بما كان وما سيكون . وهو اله الفكر والذاكرة ، والعلم والفن ، والشعر والخيال ، والموسيقى والغناء ، والزراعة والطب . وهذه الصنائع وتلك الصفات لاتظهر ولا تنمو الا فى نور الالهام وصفاء الفكر وقوة الذاكرة ، أو بعبارة جامعة فى الحيـاة العقلية ، فأبولون هو رمز هذه الحياة ومصدرها وموجدها فى الانسان .

وكما أن الشمس جميلة وفتية وقوية على الدوام فقد تصور العقل اليـونانى أن أبولون فتى جميل قد خـلد فيه الشباب والصِّبا ، وكمل فيـه الجمال والانسجام ، وتوافرت له القوة العظمى السرمدية .

٦ — مما تقدم نعرف مقدار كثرة الدوائر التى اختص بهـا فويبوس — أبولون ومدى اتساعها وهو مع مباشرة العمل فيها بنفسه قد ضم اليه عدداً من الالـهات يُعرفن بربات الفنون قد اختصت كل واحدة منهن تحت اشـرافه وقيادته بدائرة

خاصة بها ومحل اقامتهن حول الينابيع الفياضة فى جبال هليكون وبرناسوس التى ماؤها يبعث النشاط الروحى فى الانسان . واقدم الاساطير الاغريقية تعد منهن ثلاثا احداهن عروس التفكير والثانية فتاة الذاكرة والثالثة قينة الطرب والغناء .

ولما اتسع نطاق هذه الاساطير بقوة أبولون وصل عددهن الى تسع . وهن بنات الآله الأكبر زويس وأمهن امنوموزينا (Mnomosyna) أى الذاكرة وترجع فى نسبتها الى التيتان ، وترى فيهن الأساطير اليونانية والرومانية أنهن آلهات الشعر بأنواعه والموسيقى والغناء والفنون الجميلة والتاريخ العام على التوزيع كما سيجىء بعد . وهنّ يقطنّ حول الينابيع الفياضة على جبال هليكون وبرناسوس وبندوس كما تقدم وكثيراً ما كن يصعدن الى قمة الأولمب مقر آلهة الطبقة الأولى ويقمن أمام الآلهة تحت قيادة أبولون بالعابهن الرياضية الرشيقة ، ويعرضن صناعاتهن عليهم ، ويطربنهم بأناشيدهن وأصواتهن الرخيمة ، وألحانهن المتناسقة موقعة على الآلات الموسيقية .

وقد اختلفت الاساطير فى أمرهن من حيث الزواج والبتولة : فمنها ما جعلتهن كلهن أبكاراً ، ومنها ما نسبت اليهن الزواج عدا أورانيا آلهة علم الفلك فانها كانت تعاقب كل من يباريها فى فنها . ومعنى الزواج فى عرف الاساطير اباحة النبوغ فى فنون تلك الفتيات والذى ينبغ فى أى فن من فنونهن ينعت بأنه ابن آلهة هذا الفن ولذلك رغبت أورانيا عن الزواج .

وكان شعراء اليونان القدامى يبدأون قصائدهم بمخاطبة آلهات الفنون ملتمسين منهنّ المعونة كهومير فى مطلع أودسيته إذ يقول :

ألا حدثينى فتاة الشعر عن رجل
جمّ المصاب يهيم بعد أن حطّم طروادةَ المقدسة
وعرف الناسَ ورأى المدن ووقف على العادات .

وبأسمائهن عنون هيرودوت تاريخه العام كل قسم منه باسم واحدة منهن .

٧ — واليك اسماءهن وفنونهن على الترتيب المصطلح عليه :

كليو — التهة التاريخ

(١) كليو (Klio) إلهة التاريخ . نراها فى صورتها جالسة وعلى رأسها اكليل من الغار وفى يدها رَق مفتوح الى نصفه وبجوارها جونة فيها ملفات تاريخية .

كاليوبة — التهة الشعر الحماسى

(٢) كاليوبة (Kaliope) إلهة الشعر الحماسى وهى أجل خدينا تها وتمثلهن فى بعض الاحيان . وهى تصور جالسة وفى يدها اليمنى القلم وفى الاخرى اللوح .

ملبومينة — الـمة المأساة

(٣) ملبومينة (Mlepomene) إلهـة التراجيديا أى المأساة . تظهر واقفة طويلة القامة فى هيبة ووقار ، وتحمل فى يدها اليمنى هامة حزينة وفى الاخرى خنجراً وعلى رأسها اكليل من الشربين .

ناليا — الهة الكوميديا

(٤) ناليا (Thalia) إلهـة الكوميديا أى الرواية المفرحة المضحكة ، والشعر

الهزلى . تراها واقفة وفى يدها اليمنى هامة مبتسمة وفى اليسرى هراوة الرعاة .

بوليمنيا — التهة شعر الحكمة الدينى

(٥) بوليمنيا (Polyhymnia) إلهة الشعر الحكيم الدينى والفصاحة ، ولذلك تصور مفكرة معقوداً على رأسها اكليل من الغار .

اورانيا — التهة علم الفلك

(٦) أورانيا (Urania) عروس السماء وإلهة علم الفلك ولذلك تمثل جالسة وفى يدها بركار ومتوسدة الكرة السماوية .

اوبتربه — الهة التلحين

(٧) أويتربه (Euterpe) إلهة صناعة التلحين والنفخ فى الناى ، والتوقيع على الآلات الموسيقية تراها مصورة وهى تنفخ فى مزمارين .

اراتو — الهة الشعر الغزلى

(٨) إراتو (Erato) إلهة الشعر الغزلى والنسيب وأناشيد الأفراح . وهى مصورة واقفة تضرب على مزهر .

تربزيكورا — الهة الرقص

(٩) تربزيكورا (Terpsic hore) إلهـة الرقص مرسومة وهى واقفة فى ثوب فضفاض تضرب على قيثارتها .

هذا ولنكتف الآن موقتا بما أجملناه اليك من نصوص الصحيفة التى تلقيناها عن هليوس والتى مرت الاشارة اليها فى الفقرة (٢) وسنعود اليها فى فرص اخرى .

— ٣ —

١ ـ مما تقدم نعرف كنه أبولون ، ونقف على دوائر اختصاصه ، وندرك مقدار نفوذه فى الاساطير الدينية اليونانية ، والأدب الاغريقى فى العموم ، والشعر بجميع أنواعه على الخصوص ، ونفقه سيادته على آلهات الفنون التسع ، ومزاولة القيادة لهن وجعل مجهودهن الفنى يرجع الى تصرفه . فهو والحالة هذه رمز الحياة الفعلية اليونانية القديمة ولولاه ماكان شعر هومير وبندار ، وأنا كريئون وتؤكريت ، ولا روايات أيشلوس وسوفكلس ، وأوريبيد وأرستوفانس ، ولا فصاحة ديموستينس وأيشنس ، ولا تاريخ هيرودوت وتوكوديدس واكسنوفون ، ولا حكمة الفلاسفة السبعة وفيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو ، ولا تصوير ونحت پراكستيلس وفيدياس وأبلس وزُيكسيس .

لم يكن مجهود فويبوس ـ أبولون قاصراً على الاغريق فحسب بل تعداه الى الرومان فانتج عندهم آثار شيشرون وهوراس ، وفرجيل وأوفيد ، وليفيوس وتاسيتوس ويوفينال .

٢ — وإن تعجب لتعدد اسماء الآلهة عند اليونان والرومان وتصوير اشخاصهم ونحت تماثيلهم فاعلم ان هذه الاسماء ، وتلك التماثيل والصور لا تدل على اشخاص حقيقية وهياكل مادية ، وانما تجعل هذه الشخصيات والهياكل والصور والتماثيل رموزاً لقوى الطبيعة ونواميسها المسخرة لقوة القوى المرموز اليها عندهم بالالهة الأكبر زويس أو جوبتر .

ولا يغيب عنا ان الاساطير الدينية اليونانية هى أجمع وأمتع اساطير العالم المتمدين القديم . وهى على تقادم عهدها لا زالت حية ، وحاكمة فى عالم الأدب الراقى والثقافة الآرية الاوربية حتى الآن . وليس من الميسور لأديب أن يفقه روح الأدب الاوربى قديمه وحديثه ، ولا لعالم بحاثة يريد ان يصل الى لب العلم فى القرن العشرين الا اذا كان ملماً بأساطير الهيلنيين وأدبهم وفنونهم وحكمتهم .

٣ — واذا كانت اللغة العربية تُعد من اللغات الحية فذلك لانها ارتبطت باللغات الحية قديماً وأخذت عنها ما جعلها تكوِّن حلقة كبرى فى تاريخ المدنية الانسانية العامة ولانها الآن توثِّق عرى روابطها باللغات الحية الحالية مشرئبة الى أخذ سيرتها الاولى بنقل مجهودات التفكير الحاضر اليها والارتواء من ينابيع المدنية الحديثة .

٤ — ونظرة بسيطة فى تاريخ تطور اللغة العربية تذكرنا بمجهود العرب والاعاجم المستعربين فى خدمة هذه اللغة ، وتعرِّفنا الحكمة فى اشتغالهم بنقل الفلسفة اليونانية اليها وتدوين علوم اليونان بها فى غضون العصر العباسى . نذكر ذلك فتدرك مقدار النهضة العقلية الكبرى التى وصلت اليها لغتنا حتى صارت بتلك النهضة الفلسفية العلمية لغةَ الحكمة والعلم والتأليف والتدوين، وغدت ادمغةُ الناطقين بها المستنيرين ادمغةَ بحثٍ وتفكيرٍ وانتاجٍ .

أجل ، صارت اللغة العربية بتلك النهضة العلمية السالفة الذكر لغة الحكمة والتدوين ومع ذلك فان ثمار العقل الاغريقى فيما يختص بالفنون الجميلة والادب والتاريخ لم تصل إذ ذاك الى هذه اللغة . فقد جهل العرب اساطير اليونان القديمة

وفنونها الجميلة وشعر هوميروبندار وغيرهما من شعراء اليونان ولم يعرفوا تاريخ الاغريق الا ابتداء من عصر الاسكندر .

واذا كانت اللغة العربية ترنو الآن الى الحياة الكاملة والى الزجّ بنفسها فى صفّ اللغات الاوربية الحية ، فأجدرُ بها ان ترجع الى ما فاتها من القديم فتتعرّفه والى الحديث فتقيده . واذاً فهى فى حاجة كبرى الى نقل أساطير اليونان وما يتبعها من أدب وفن اليها ، إذ هى أسمى ما فى القديم وهى روح الجديد فى جميع أنحاء الثقافة الاوربية العامة التى تغترف منها بحكم الطبيعة . ومحاولة معرفة هذه الثقافة كاملة مع عدم الالمام بدين اليونان وعقائدهم فى اساطيرهم والوقوف على فنونهم وآدابهم ضربٌ من المحال .

٥ — اذا تقرر هذا وفهمناه على وجهه الصحيح فسرعان ما نحمد للدكتور أبى شادى نهضته الادبية الشعرية فى مجلة (أبولو) وفى تسميتها بهذا الاسم الفنى الجميل ، الاسم الأثرى العالمىّ الجليل. ولا شك ان مؤسس المجلة ومحررها قد لاحظ هذا النقصَ الادبى فى لغتنا وثقافتنا الذى أشرنا اليه فأراد ان يسدّ هذا الفراغ بمجهود مجلته وقد رمز الى ذلك باسمها المختار .

يعمل الدكتور ابو شادى بمجهود الجبابرة فى تلافى هذا النقص والسمو بالادب والشعر العربى وباللغة العربية الى الغاية الكبرى التى لا تدرك الا بالقديم والجديد فى الثقافة الانسانية العامة . وأساس هذه الثقافة بقسميْها يرتكز على الاساطير والفنون والآداب والعلوم والحكمة اليونانية . ورمزُ هذا كله هو الآلة فويبوس ـ أبولون . وأجدر بمجلة أبى شادى الناهضة التى تعمل لهذا الغرض ان تُتوّج بهذا الاسم التاريخى العظيم .

ابو العلاء فى المنام

فلو سمح الزّمانُ بها لضَنَّت ولو سمحتْ لضنَّ بها الزّمانُ !

هو أول شعر وقع عليه نظرى لأبى العلاء بل هو أول شعر جدّى قرأته فى مستهل حياتى الأدبية أيام حداثتى ، وكنت قد عثرت عليه بين أوراق متناثرة مهيّأة للوقود ولم ألبث بعد ذلك أن وقعت فى يدى أبيات مختارة من شعر المعرى فى لزومياته. ولشدّ ما كانت دهشتى حين لم أجد فى شعر صاحبها مدحاً أو ذماً كما عوّدنا اكثر الشعراء من قدماء ومحدثين : فقد وجدت فى اللزوميات رجلاً لايعدو الحقيقة فى كل ما يقول ، ورأيت شاعراً من طراز آخر غير أولئك الذين ألفتُهم فى ذلك العهد يملأون الدنيا مديحاً وهجاء .

ورأيتُ من صديقى كامل كيلانى اعجاباً باللزوميات وفتنة بالمعرى ما ضاعف اعجابنا معاً بهذا العبقرىّ الفذّ. فكنا نقرؤها معاً وعلى انفراد ، وكان كل منا ينشد صاحبه مايعجبه منها، ومن ذا الذى لايعجب حين يقرأ لأبى العلاء هذه الأبيات التى تفيض رحمةً وحناناً :

وابكِ على طائرٍ رماه فتىً لاهٍ فأوهَى بفهرهِ الكَتِفَا
أو صادَفتْه حِبالةٌ نُصبَت فظلَّ فيها كأنما كُتِفا
بكّرَ يبغى المعاشَ مُجتهداً فقُصَّ عند الشروق أو نُتِفا
كأنّه فى الحياة ما فرعَ الـ ـغصنَ فغنّىّ عليهِ أو هَتَفا !

وقوله الذى يمثل زبدة فلسفته فى الحياة :

عملٌ كلا عَمَلٍ ، ووقتٌ فائتٌ ويدٌ إذا ملَكتْ رَمَتْ ما تملكُ
وشخوصُ أقوامٍ تلوح ، فأُمّةٌ قَدِمَتْ مجدَّدَةً وأُخرى تهلكُ
أمّا الجسومُ فللترابِ مآلُها وَعييتُ بالأرواحِ أنّى تسْلكُ !

أصبح ابو العلاء يملك علينا كلّ مشاعرنا : ففى كل مجلس نذكر اسمه ونتغنى بأبياته ونستشهد بها فى كل مناسبة وأمام كل شخص أديباً كان أو غير أديب !

نعم، كان ابو العلاء عندنا ولا يزال الشاعر الفذّ الذى :

تتصرَّمُ الدنيا وتأتى بعده امٌ وأنت بمثلهِ لا تسمعُ(١)

وفى ذات ليلةٍ رأيتُ فى منامى كأنى فى مكان فسيح خُيل إلىَّ انه قلعة يشع النور الطبيعى فيه من كل جانب وفى احدى زواياه سرير قد استلقى عليه شيخ فى ثياب بيضاء وعليه غطاء ابيض، ذلك الشيخ هو ابو العلاء المعرى شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء، ورأيتنى أدنو منه وكأن ذلك شيءٌ مألوفٌ عندى وخاطبته قائلاً: « هل لسيدى الاستاذ ان يصحبنا فى نزهة جبلية ؟ » فشخص إلىَّ ببصره قائلاً :

هيهات لا أستطيع السيرَ ويحكمو فليس يُطلقُ هذا الدَّهرُ مأسورَا !

فلم ألبث أن صحوتُ من نومى فرحاً مسروراً وأنا أكرر هذا البيت وكتبته خوفاً من نسيانه، وقد كنت استكثر على نفسى حتى رؤية أبى العلاء فى المنام » !

ولعل انشغال بالى بالمعرى فى يقظتى ومنامى هو سر هذا الحلم العجيب فلطالما تغنيتُ بشعره فى مناسبة وغير مناسبة، وقديماً شُغِلَ به الأدباء والعلماء ومَن اليهم فى العصور الماضية ورأوه فى أحلامهم وتمثلوه فى حياته وبعد مماته : فمن ذلك ما رواه احد معاصريه، قال : « واذكر عند ورود الخبر بموته وقد تذاكرنا الحاده ومعنا غلامٌ يُعرف بأبى غالب بن نبهان من أهل الخير والعفة، فلما كان من الغد حكى لنا قال : رأيت فى منامى البارحة شيخاً ضريراً وعلى عاتقه أفعيان متدليتان الى فخذيه وكل منهما يرفع فمه الى وجهه فيقطع منه لحماً يزدرده وهو يستغيث ! فقلت وقد هالنى : من هذا ؟ فقيل لى : هذا المعرى الملحد ! »

وقد روى ابو العلاء فى لزومياته ابياتاً تشعرنا بأنها ردّ على احد الحالمين به حين عرض عليه حُلماً لا ندرى كيف رواه وإن وضّحه المعرى أحسن توضيح فى أبياته التالية :

رآنى فى الكَرَى رجلٌ كأنّى من الذَّهب اتخذتُ غشاءَ راسِى
فلَنسُوَةٌ خُصصتُ بها نُضاراً كَهُزْمٍ أو كَمَلْكٍ أولى خُراسِ
فقلت مُعبِّراً : ذهبٌ ذَهابى وتلك نباهةٌ لى فى انـدراسِ
ومَنْ لاَخِيكَ لو يحدو رِكاباً بأفراس يطأن على الفراسِ
أقتُ وكان بعض الحزم يوماً لركب السُّفن أن تُلقَى المراسِى

وقد روى القفطى عن القاضى أبى عمرو عثمان بن عبد الله الكرَجى انه كان وهو طالب يقع فى دين أبى العلاء، فرأى فيما يرى النائم كأنه فى مسجد وكأنّ على صُفَّةٍ

(١) من قصيدة رثاه بها الامير ابوالفتح المعرى شاعر حلب فى ذلك الوقت.

فيه رجلاً شيخاً ضريراً بادناً (١) والى جانبه غلام يشبه ان يكون قائده قال القاضى : وكنت واقفاً تحت الصُّفة فى نفر من الناس وهـذا الشيخ يتكلم كلاماً لم أفهمه . ثم التفت الىّ وقال : ما حملك على الوقيعة فى دينى وما يدريك لعل الله غفر لى (٢) قال: فاستحييتُ منه وسألت عنه فقيل هو أبو العلاء ، فلما أصبحتُ أقلعتُ عن النيل منه واستغفرتُ الله لى وله .

ثم مضى على ذلك دهرٌ وأنسيته ودخلت المعرة فزرت مسجدها للصلاة فاذا هو كما رأيت فى النوم واذا الصُّفة كعهدى بها وعليها راهبٌ يضفر البردى . فتقدمت اليه وسألته عما يصنع فعرفت انه يصنع الحصر لهـذا المسجد وكان على ديره ان يؤدى للمسجد هـذا العمل كلما احتاج اليه . قال : فلما اذكرنى ذلك ما أنسيته سألت عن قبر أبى العـلاء فزرته فاذا هو مهمـل فى مكان أشعث وقـد نبتت عليه الخبازى ثم جفت — فقرأت عنده واعتذرت اليه وذلك فى أوائل القرن السابع » .

وأرى أن اختم هـذه الكلمة بهـذه الابيات التى هى فى حكم الوصية للمكان الذى اشتاق أبو العلاء أن يُدفن فيه وإن كان فيها روح الدعابة والسخرية :

ودِدْتُ وفاتىَ فى مهمـهٍ ... به لامـــع ليس بالمعْـلَمِ
أموتُ به واحـداً مفـرَداً ... وأُدفن فى الأرض لم تُظلمِ (٣)
وأبعـدُ عن قائل : لا سلمتَ ! ... وآخـر قال : ألا يَسْلَمِ !
أُحاذرُ أن تجعـلوا مضجعى ... إلى كافـرٍ خان او مُسلمِ
إذا قال : ضايقتنى فى المحـلّ (م) قلت : أساؤا ولم أعـلمِ !

وقوله :

إذا متُّ لم أحفِلْ بما اللهُ صانعٌ ... إلى الأرض من جدب وسقى غيوثِ
وما تشـعر الغبراءُ ماذا تجنّه ... أأعظمُ ضأنٍ أم عِظامُ ليوثِ !

سير ابراهيم

---

(١) والحقيقة ان حالة ابى العلاء كانت عكس ذلك . قال فى لزومياته :

تحفّـوا بالكلام واكرمـونى على ماكان من جسدٍ نحيل

(٢) من قوله فى اللزوميات :

وقال : أأخشى عـذاب الله والله عادل ... وقد عشت عيش المستضام المعذب؟!
أأصبح فى الدنيـا كما هـو عـالم ... وأدخل ناراً مثل قيصراً أو كسرى؟!

(٣) اى التى لم تحفر قط فحفرت ، يريد لم يدفن بها احد من قبل .